

هَادِي زَكَك

العَرْضُ الْأَخِيرُ

سيرة سيلما طرابلس



الملف الصحفي



العرض الأخير سيرة سيلما طرابلس

عُرفت السينما في الأوساط الشعبية الطرابلسية باسم "سيلما" واحتلت مكانة مهمة في حياة المدينة، امتدت من الثلاثينيات إلى نهاية القرن العشرين. يروي هذا الكتاب سيرة صعود وازدهار "سيلما" فتتكون المعابد والطقوس والقصص والأفلام والنجوم وتتشابك السينما مع حياة مدينة عربية اختبرت كل أنواع الأفلام في حياتها. تواكب "سيلما" تاريخ طرابلس المعاصر قبل أن تسلم روحها مخلفة إرثاً كبيراً من الصور والأصوات.

The Last Film Screening

A biography of Cilama Tripoli

618 pages- Size: 31*25- Weight: 2.5 kg

ZAC Films- 2021.

Cinema was known in the popular dialect in Tripoli as "Cilama". It played an important role in the life of the city from the thirties till the end of the 20th century.

This book recounts the rise, development and fall of "Cilama" with its temples, rituals, stories, films, stars... The biography of Cilama merges with the life of an Arab city that has experienced all kind of films. It interacts with the modern history of the capital of North Lebanon before declaring the end of the screening and leaving a lot of pictures and sounds.

هادي زكّك، كاتب ومخرج سينمائي لبناني حائز على جوائز عدّة وأستاذ-باحث في معهد السينما IESAV، جامعة القديس يوسف، بيروت. أخرج أكثر من 20 فيلماً وثائقياً حول مواضيع سياسية واجتماعية تتعلق بلبنان والعالم العربي ومن أبرزها الأفلام التالية: "يا عمري" (2017)، "كمال جنبلاط، الشاهد والشهادة" (2015)، "مارسيدس" (2011)، "تاكسي بيروت" (2010)، "درس في التاريخ" (2009)، "حرب السلام" (2007)، "لاجئون مدى الحياة" (2006)... في العام 1997، صدر له كتاب عن تاريخ السينما اللبنانية باللغة الفرنسية تحت عنوان: "السينما اللبنانية، مسار سينما نحو المجهول (1929-1996)". يحاول زكّك من خلال أعماله التنقيب في الحاضر عن آثار الماضي والمحافظة على الذاكرة.

Hady Zaccak is a Lebanese award-winning filmmaker and a Professor/Researcher at IESAV film School, Saint-Joseph University, Beirut.

He is the author of more than 20 documentaries. His selective filmography includes: "Ya Omri" ("104 wrinkles") (Jury Award Malmo Arab Film Festival, Sweden, 2017), "Kamal Joumblatt, Witness and Martyr"

(Francophone Trophy for the best documentary 2016), "Marcedes" (FIPRESCI Award (the International Federation of Film Critics)-

Dubai International Film Festival 2011), "Taxi Beirut" (2010), "A History Lesson" (1st prize at the Arab Film Festival-

Rotterdam 2010), "The War of Peace" (2007), "Refugees for Life" (2006)...

In 1997, he wrote a book in French about the history of Lebanese cinema: "Le Cinéma Libanais, itinéraire d'un cinéma vers l'inconnu (1929-1996)".

Zaccak seeks to document a constant vanishing memory.

العرض الأخير سيرة سيّما طرابلس

الكتاب متوافر في مكتبة دار الفرات
Dar el Furat, Bekhazi Building, Abla Street, Ras Beirut, Tel: +961 1 750554
في جميع فروع مكتبة أنطوان وفي مكتبة جروس، طرابلس.

وعبر المواقع التالية:

www.alfurat.com

www.buylebanese.com

www.antoineonline.com

كتبوا عن "العرض الأخير":

"الكتاب ليس مجرد تاريخ للسينما بقدر ما هو تسجيل للذاكرة المدنية، وارتباط هذا الظهور مع مراحل تطوّر مدينة بمسيرتها السياسيّة والاجتماعيّة وتحولاتها على مختلف الصعد." (مايز الأدهمي- صاحب جريدة "الإنشاء"، طرابلس)

"خرج هادي زكّاك بأخر المطاف بنصّ مشهديّ "سوسيولوجي - أنثروبولوجي" يلامس النوستالجيا والعلم والخيال المجنح العابر لشبه قرن من الزمن، فardاً جداريّة من زاوية وبؤرة عدسة واسعة المجال، تدخلنا إلى حكاية من حكايات المدينة." (جان رطل-مخرج من الميناء، طرابلس)

"أتى الكتاب الورقيّ حيّاً بمقابلاته، وتحليل الأحاديث والاستنتاج المقصود، خدمة للنصّ الروائيّ السينمائيّ كأنّ المخرج هنا حرص على مشهديّة النصوص في توليف إخراجي قادر على أن يسجّله تقنيّاً وفق توارّد الصور المتعاقبة في الغرفة السوداء لتظهير الفيلم الملوّن، بما مضى، وبما اندثر." (د. جان توما- كاتب من الميناء، طرابلس)

"وإذا كان أجمل ما في فنّ السينما هو قدرته المدهشة على التسلل للعقول والقلوب، في تعليم البشر دون دروس، وتغيير ثقافتهم دون عضات، بل بالمشاهدة والتماهي والاستمتاع والتأثر، فإنّ هادي زكّاك، وهو المنغمس بين ذراعي الأمر: السينما والتعليم، يدرك ذلك بوضوح، ويعلم أن حضور السينما في مدينة بعيدة عن المركز يصعب اعتباره مجرد وسيلة للترفيه، بل هو بمثابة تأريخ مواز قد يكون أكثر صدقاً من كتابات المؤرخين." (أحمد شوقي- ناقد سينمائي مصري)

"ما أن يقع المؤلف بين اليدين حتى تتسارع الأسئلة. ففي زمن الضلل والتقهقر ثمة كتاب يوثق لـ«معابد السينما» في طرابلس الفحاء، وفي حلّة أنيقة تليق بها، وبالذاكرة الخصبة والجذابة محققاً انتصاراً على النسيان والموت." (زهرة مرعي- جريدة القدس العربي)

"بصفحاته التي تفوق 600 وأكثر من 700 صورة، يبدو الكتاب موسوعة توثيقية لحياة مدينة عربية نموذجية طوال قرن في ظل السينما. أرشفة دقيقة، عميقة، لمرحلة تاريخية مفصلية، وما رافقها من تحولات سياسية واجتماعية طالت طرابلس، من خلال رصد العلاقة الوطيدة بين الناس وما فعله بهم الفن السابع." (سوسن الأبطح- جريدة الشرق الأوسط)

"يتعدّى «العرض الأخير» السرد الإسمي، والتوثيق التاريخي، ليشكّل قراءة سوسيولوجية – أنثروبولوجية لمشهد عرفته مدينة طرابلس طوال ما يقارب قرناً من الزمن، في منحى يتخذ تصاعداً فكرياً، تنتشعب منه محطات التاريخ السياسي، والاجتماعي، والتحوّلات المستمرة للمدينة الشمالية، وتأثرها بمحيطها. سرد يتجاوز مع 750 صورة، جمعها زكّاك في كتاب هو أشبه بفيلم روائي، ذي طابع مشوّق ونوستالجي." (خليل الحاج علي- جريدة الأخبار)

الكتاب حاز على دعم من:



مقالات صحفية حول "العرض الأخير"

العرض الأخير.. سيرة سيّما طرابلس .. مرثية هادي زكاك لزمن السينما

القاهرة – (الثقافية) - 2021-8-19

بقلم: أحمد شوقي (*)

بمجرد الاطلاع على السطور الأولى من كتاب "العرض الأخير.. سيرة سيّما طرابلس" للمخرج والكاتب والأكاديمي اللبناني هادي زكاك، عرفت أن ما يجمعني بالكتاب أكبر من علاقة القارئ العادي أو حتى المتخصص. فمن جهة، هناك رابط قوي من الذكريات والمشاعر صار بيني وبين طرابلس، عاصمة الشمال اللبناني والمدينة ذات الماضي العريق والحاضر المتألم، بعد سنوات من حضور مهرجان الأفلام المقام في المدينة، ضيفاً ثم عضواً في فريق البرمجة، وبالتالي فقد شهدت بعيني آلام مدينة تحاول السينما فيها أن تجد مساحتها وسط واقع اقتصادي عسير واقتتال طائفي يرقد تحت الرماد وتشدد ديني صار عنواناً للمكان. من جهة أخرى، نشأت طفلاً في طنطا، المدينة المصرية العريقة التي لا تختلف عن طرابلس ولا عن عشرات الحواضر العربية التي كانت قديماً تحتضن العديد من قاعات العرض في كافة أحيائها، لتفقد تلك القاعات واحدة تلو الأخرى. وبينما كنت أتابع الأنباء المفرحة عن افتتاح عشرات – بل مئات – الشاشات في المملكة العربية السعودية، كنت أتألم في كل مرة أزور فيها مسقط رأسي لأمر بموقع "سينما مصر"، أحد أعرق وأفخم قاعات العرض المصرية التاريخية، وقد تحولت ركاماً بعد تنفيذ قرار إزالتها قبل عدة أشهر. في محيط منزل طفولتي كانت قاعات "مصر" و"أمير" و"ريفولي" و"الجمهورية" و"أوبرا" تعرض أفلامها بلا توقف، فعدت جميعها إما أماكن مهجورة أو قاعات للأعراس (اللهم إلا "ريفولي" التي صمدت بتحويلها في الوقت المناسب أربع شاشات فقيرة تعمل في الأعياد والمواسم). طرابلس أيضاً كانت كذلك وأكثر، ولم تعد.

قاعات عديدة وتاريخ حافل

أربعون قاعة سينمائية يرصدها هادي زكاك في كتابه المنشور عن شركته "زاك فيلمز" بدعم من عدة مؤسسات ثقافية وسينمائية، الشركة التي ستكون بطبيعة الحال مسؤولة عن الفيلم الوثائقي الذي يعدنا به "العرض الأخير". فيلم نتق في خروجه بالمستوى اللائق، تارة لمسيرة المخرج صاحب "مارسيدس" و"يا عمري" وغيرها من أهم الوثائقيات اللبنانية خلال القرن الحالي، وتارة لأن قدر الجهد البحثي والأرشيف المصور في الكتاب أمور تكشف بوضوح عن حجم المادة التي يمتلكها زكاك، والتي صاغها في كتاب يروي ما هو أكثر من تاريخ قاعات "السيّما" الطرابلسية. و"سيّما" المذكورة في عنوان الكتاب هي السينما باللهجة الطرابلسية، لهجة المدينة ذات الطبيعة الخاصة الحاكمة لتكوينها؛ فهي أقصى الشمال اللبناني، بما جعل أهلها يطالبون قديماً – كما يخبرنا الكتاب – بالانضمام لسوريا لا للبنان، وهي "قلعة المسلمين" في بلد مزقته الحرب الأهلية مرتين كما تصفها اللافتات التي يرصدها زكاك، كما تحتضن خط

تماس "باب التبانة - جبل محسن" أحد أسخن خطوط الاقتتال السني - العلوي في العالم، نفس الخط الذي كان موقعًا لقاعات سينمائية عريقة، والذي يحاول مهرجان طرابلس للأفلام إقامة عروض سينمائية فيه خلال الأعوام الأخيرة. نفس هذه المدينة الذي يرتبط ذكرها بأخبار القتال والتفجيرات والتطرف، كانت في الماضي أحد أهم موانئ الشام، وشكلت حاضرة ثقافية لقرون، وامتلكت تلك القائمة الطويلة من قاعات السينما التي جعلت الفن جزءًا لا يتجزأ من حياة أهلها، يتفاعل بشكل عضوي مع ثقافتهم وأخلاقهم وتصرفاتهم. هذا التحدي الذي يخوضه زكاك في كتابه المشكل بالكامل تقريبًا من مداعبة الذاكرة: التفتيش عن مواقع القاعات وتقصى حاضرها المظلم، مطاردة الذكريات في رؤوس أهالي المدينة سواء في شهاداتهم اللفظية أو في إنتاجاتهم المكتوبة، أدبًا ومقالًا، أو في رصد صورة طرابلس السينمائية على الشاشة والورق.

الفن والمجتمع وجها عملة طرابلسية

وإذا كان أجمل ما في فن السينما هي قدرته المدهشة على التسلل للعقول والقلوب، في تعليم البشر دون دروس، وتغيير ثقافتهم دون عظات، بل بالمشاهدة والتماهي والاستمتاع والتأثر، فإن هادي زكاك، وهو المنغمس بين ذراعي الأمر: السينما والتعليم، يدرك ذلك بوضوح، ويعلم أن حضور السينما في مدينة بعيدة عن المركز يصعب اعتباره مجرد وسيلة للترفيه، بل هو بمثابة تأريخ مواز قد يكون أكثر صدقًا من كتابات المؤرخين.

ما الذي كانت القاعات تعرضه في خمسينيات القرن الماضي؟ وكيف استقبل المجتمع الطرابلسي المحافظ علاقات الغرام والقبيلات على الشاشة؟ وكيف تعاملت "سيلما"، الشخصية الافتراضية التي تعيش في الكتاب ممثلة لقاعات المدينة، مع أوضاع الحروب الأهلية واقتتال الميليشيات وموجات التفجيرات التي لم تتوقف في محيطها طيلة عقود؟ يرصد "العرض الأخير" ذلك وأكثر. يهتم بكل تفصيلة ويحكي ما بين السطور: كيف كانت للسينما دورًا في تغيير ذهنية وأنماط المعيشة في وقت السلم، وكيف صارت ملأًا لنسيان فظائع وقت الحرب. كيف كانت الأفلام المعروضة (والممنوعة) قياسًا دقيقًا للتوازنات السياسية والعلاقة بدول العالم، وكيف صار لتراخي أيدي الرقابة وسماحها بما كان ممنوعًا دلالات سياسية أكبر بكثير من الرغبة في عرض فيلم ساخن يجذب جمهور المراهقين.

يجعلنا "العرض الأخير" نقع في حب "سيلما" طرابلس، فقط لأننا نحب أنفسنا ونحن لذاكرتنا التي تعيش بداخلها مجموعة من تلك القاعات القديمة التي تبدأ دائمًا أنيقة وتراجع بمرور الزمن. سينما الصالة والبلكون واللودج، ومتاجر المسليات والمشروبات التي تستقبلك قبل دخولك رغم لافتات المنع التي لا يكثر بها أحد. قاعات العرض المستمر والفيلمين في "بروجرام" واحد، والشاشات البالية التي كلما ازدادت ضبابيتها كلما ولدت المزيد من الأفكار والخيالات والأحلام.

تلك القاعات التي انقرض أغلبها فصارت محض ذكريات في أذهان من عاش زمنها، ونجت ندرة منها بعد أن انقسمت الشاشة العملاقة إلى مكعبات محدودة تفوقها بعض الشاشات المنزلية جودةً وأثرًا، هي شهود من الذاكرة على زمن مضى ومستقبل كان من المفترض أن يكون أفضل. فبينما العالم كله واجه أزمة دور العرض في مواجهة الوسائط المنافسة وتعامل معها بما يضمن للسينما استمرارها، بما يرتبط بها من أفكار وحب للحياة ومناخ عام داعم لحريات الفكر والرأي والتعبير، فإن عالمنا العربي وحده هو من رفعت قاعاته لافتة "العرض الأخير"، أو بالأحرى لم ترفعها لأن الإلزام دائمًا ما يأتي بغتة، إظلام الصالات والشوارع والعقول، في طرابلس كما في طنطا وكافة المدن العربية المنكوبة.

أحمد شوقي - ناقد سينمائي مصري *

كتابه "العرض الأخير" يستعرض تاريخ السينما في طرابلس المخرج هادي زكّك: إستمرار الفنّ وإصدار الكتب فعل مقاومة

بيروت- جريدة "نداء الوطن"- 23-8-2021

مقابلة أجرتها مايا الخوري

صدر المجلّد التوثيقي "العرض الأخير، سيرة سينما طرابلس" للكاتب والمخرج السينمائي اللبناني والأستاذ الباحث في معهد السينما في جامعة القديس يوسف بيروت، هادي زكّك. زكّك الحائز على جوائز عدّة في الأفلام الوثائقية السياسية والاجتماعية يحاول من خلال أعماله التنقيب في الحاضر عن آثار الماضي والمحافظة على الذاكرة. عن مضمون مجلّده، "ورأيه في القضايا المعيشية والسياسية في البلد، يتحدث إلى "نداء الوطن

عمّ يتمحور كتابك "العرض الأخير"؟

يستعرض الكتاب تاريخ دخول السينما وصلاتها إلى طرابلس وتطوّرهما، وأحكي من خلالهما تاريخ المدينة، سارداً كيف تحوّلت السينما إلى جزء مهمّ من الحركة الاجتماعية والسياسية، فضلاً عن طقوسها وتفاعلها وتأثيرها في المجتمع. كما تناولت إنعكاس الحرب عليها، وصولاً إلى مرحلة إقفال أبوابها. أما إنتشار كوفيد19، فشكّل الضربة القاضية للصالات، أي للمكان الذي يلتقي فيه أطراف المجتمع

لماذا اخترت مدينة طرابلس؟

غالباً ما تهتمّ الأفلام الوثائقية بالمنفيين والذين لا صوت لهم. رغم أن طرابلس مدينة مهمة وكثر تراثي، إلا أنها منفيّة. كأن بيروت هي النجمة التي سرقت الأضواء كلها، حارمة المناطق الأخرى من أضوائها. إلى ذلك، أضاعت العاصمة صالات السينما القديمة مع مشروع إعادة الإعمار، بينما حافظت طرابلس عليها كأثر لعراقتها وعراقة لبنان بشكل عام. وما صمود هذه الصالات برأيي سوى دلالة إلى أنها شكّلت معابد يتوجّه إليها المواطنون في أيّام إستراتيجية كيومي الجمعة والأحد، على خلاف صالات المولات التي تقتصر على الإستهلاك السريع

ألست مغامراً في إعداد مجلّد توثيقي مطبوع في ظلّ ظروفنا الصعبة؟

أرى حياتنا اليومية مغامرة بحدّ ذاتها، إنما تحقيق هذا الوثائقي هو فعل مقاومة وصمود لأن كلّ ما يحيط بنا يعمل على تدميرنا تدميراً شاملاً، بعدما إقتصر تفكيرنا اليومي على تأمين تنكة البنزين والكهرباء. يجب التفكير بسبب بقائنا هنا وكيفية المحافظة على هذا البلد ذي الطاقات الهائلة، إلى جانب التحديات اليومية الصعبة. بدأت منذ 4 أعوام التحضير لهذا الوثائقي المتشعب والبحثي الطويل، والتنقيب لإيجاد الأماكن والناس والآثار، لكننا واجهنا مراحل وتحديات كثيرة بسبب إنتشار الوباء وإنطلاق الثورة. على كلّ، تبقى مسيرتنا الثقافية والفنية في هذا البلد تحدياً بحدّ ذاته

هل سيكثر اللبنانيون الذين يعانون من ظروف معيشية ضاغطة للثقافة والقراءة؟

لم أدع إلى توقيع كتابي تحسّساً للظروف الإقتصادية الصعبة، خصوصاً أن المجلّد مكوّن من 618 صفحة، ويتضمن أكثر من 750 صورة ومستند. برأيي، يرتبط إستمرار الأعمال الفنية وإصدار الكتب في خلال الحرب بعملية الصمود، لنتذكر

الناحية الأخرى من لبنان، بمعنى أن هناك معارك أيضاً لصناعة الثقافة في البلد.

أي عبرة تستخلص في التنقيب عن تراث الماضي وآثاره؟

إن مشروعني في هذا الإطار تراكمي عبر السنوات لأنني من جيل بدأ التطور بعد الحرب، خصوصاً بعد صدور قانون العفو والنسيان الذي أدخلنا في عملية فقدان الذاكرة. لذلك أشعر أنني عالم آثار أنقب عمّا تبقى قبل زواله، لإبتكار تواصل مع الماضي، أفهم من خلاله الحاضر وما بقي لنا للمستقبل. عندما ينشر الناس صوراً من الماضي، معلقين "من الزمن الجميل"، يتناسون أن هذا الماضي لم يكن دائماً جميلاً وشُنت فيه الحروب. علينا تفعيل ذاكرتنا كي نتعلم فننقد، يجب أن نظهر الترابط ما بين الماضي والحاضر لتعلم شيئاً للمستقبل.

دعوت عبر مواقع التواصل الإجتماعي لإستقبال 4 آب بصمت، عن أي صمت تتحدث ولماذا؟

أقصد الصمت إحتراماً للضحايا والمدينة وكل التاريخ. توقعت للأسف أن يحصل إستغلال للحدث، ربما عن نية طيبة، لإبكاء أهالي الضحايا والتركيز على الدمعة، محولين الذكرى إلى مهرجان بينما هي لحظة صلاة صامتة. أفهم لحظة الصمت إحتراماً لهذه المناسبة أكثر من إقامة الطقوس الدينية. برأيي، نحتاج إلى الصمت في خضمّ التراشق الكلامي والكذب والخطابات وفي ظلّ الظروف الصعبة التي نعيش. كما تحتاج المدينة إلى الصمت بعد كل ما عاشته وعشناه، لكنهم حولوا مسرح الجريمة إلى إستديو من دون إحترام الموت. نسعى غالباً إلى إستهلاك للدخول إلى "الميلودراما" في حين أن الواقع كله ميلودرامي ولا يحتاج إلى دافع خارجي.

برأيك لو تحققت العدالة، ألم تكن لتمرّ الذكرى بصمت؟

أدعم أهالي الضحايا في كل تحركاتهم، فهم يشبهون أهالي مخطوفي الحرب الذين لا يزالون يبحثون عن الحقيقة والعدالة التي لن يجدها في هذا البلد. وهم يملكون مطلق الحرية في التعبير عن هذه المناسبة إنما هناك مؤسسات قد حولت الذكرى إلى حدث إستهلاكي، رغم أن النية قد تكون طيبة.

تنشر صوراً قديمة أحياناً بدون تعليق، وكأنها أبلغ من الكلام في ظروف مماثلة؟

نعيش في بلد تنتهي أزماته بالتسويات بين الأطراف كافة، رغم أننا نحلم بالمواطنة وبناء الوطن. مررنا بحرب أهلية وباقتتال تاريخي، لذا لا بدّ من أن نكون قد تعلمنا كيفية ردع من يريد اللعب على الغريزة. لهذا السبب، أستخدم صوراً من أرشيفي الخاص من الماضي أو من الحاضر للتعبير عن ألم الواقع ومأساته وفساده. أحاول من خلال الماضي فهم الحاضر لا للتغني به، بل لأنني أجد عملية تواصل بينهما.

إنطلاقاً من مواكبك السينمائية والوثائقية لكثير من المحطات التاريخية في لبنان، بم تشبّه هذه المرحلة؟

تذكّرنا بمرحلة 89-90 عبر وجود الشخصيات نفسها تقريباً بمواقع السلطة. إذا تذكّرنا جيّداً، تشبه آخر مرحلة من الحرب الأهلية. برأيي نعيش دورة متكرّرة من الهدنة والحروب. بعد مرورنا 15 عاماً بهدنة ما يسمّى الوصاية السورية، دخلنا في حرب أهلية غير معلنة منذ آذار 2005، بين طرفي النزاع السني والشيعي. ما زلنا نعيش هذه الحرب التي بلغت ذروتها حالياً، وهي تنذر بخاتمة شبيهة بـ89-90. ما اقتربنا من التدهور حالياً، سوى إقتراب من التسوية، التي لا تنذر بشيء إيجابي للوطن، بل تكون إنتصاراً لأحد المكوّنات الطائفية على المكوّنات الأخرى. أنطلق في هذا الرأي من

.قراءتي للحركة ما بين الماضي والحاضر

كيف سيذكر التاريخ هذه المرحلة؟

وهل تفكر بتوثيقها في صور أو فيلم؟تعلمت بفضل الخبرة والزمن الوقوف على مسافة من الأحداث لانتاج علاقة جدلية

.مع المرحلة التي أريد توثيقها

“هادي زكّاك: في البدء كان العرض الأخير”

طرابلس- موقع ألف لام
بقلم د. جان توما

كلّما تناولت كتاب “العرض الأخير، سيرة سيّما طرابلس” لأقرأه، أتهيّب الموقف، فالكاتب المخرج السينمائي هادي زكّاك يدوّن بحنين سيرة حياة كلّ طرابلسي عاش أيام الشاشة الفضائية في زمن طرابلس الثقافي الذهبي. هذا الكتاب التاريخي للسيّما، باللهجة الطرابلسية، أيّ السينما، صدر بدعم من الصندوق العربي للثقافة والفنون (أفاق)، جمعية بيروت دي سي، مركز محمود الأدهمي الثقافي للتوثيق والأبحاث والمعلومات، طرابلس، ومعهد الدراسات المسرحية والسمعية (2021). المرئية والسينمائية، جامعة القديس يوسف، بيروت

يعود هذا التهيّب عندي، لضمان المؤثرات التي يجب أن تتحقّق لحضور فيلم سيّما، من: إطفاء أنوار، وكروسي مريح مع رفع قدميك على الكرسي أمامك، إضافة إلى كيس بزر صغير أو آخر من عبيد مملّح، ما يعني أنّه عليك قبل أن تقرأ الكتاب الأرشفي أن تقوم ببعض الطقوس التي كانت في ذلك الوقت، إلّا أنّ غلاف الكتاب نجح للمتأمل في تقنيته وإبداعه في تأمين العتمة، بسبب اللون الأسود الطاعي، والكرسي المستحضرة أمّنت الجلوس المريح لبدء “العرض الأخير”، فجلّسنا واشتغلنا آلة العرض

واضح أن الكتاب جاء أرشفة متقنة لدور السينما في طرابلس والميناء وأثرها في تنمية المجتمع المحلي، وفي توسيع مروحة أهمية الفنّ السابع، ما يشير إلى أنّ الكتاب “ليس مجرد تاريخ للسينما بقدر ما هو تسجيل للذاكرة المدنية، وارتباط هذا الظهور مع مراحل تطوّر مدينة بمسيرتها السياسية والاجتماعية وتحولاتها على مختلف الصعد” (مايز الأدهمي من المقدمة ص 7). من هنا البدايات، حيث يجلسك هادي زكّاك على كرسي في مقهى، متابعا رواية الحكواتي في “عالم يمتزج فيه التاريخ بالأساطير” (ص 19)، ليعود فيطفئ الأضواء، “لنتمّ إنارة شاشة بيضاء من الخلف بواسطة شموع، أو قديّل، مع حكاية بطل خيال الظل” (ص 20)، ليجلسك مجدّداً على مقعد خشبي أمام صندوق الفرجة حيث “الصور تتعاقب وتتفكّل إلى عالم خارج أسوار المدينة” (ص 21)

ينطلق الكاتب من بدايات المسرح الطرابلسي في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، ثمّ بدايات السينما التي قامت أولاً في إهدن “حيث كان يجري عرض لما كان يسمّى بالمناظر” (ص 23)، إلى أن تمكّن “توفيق نوفل” من إحضار آلة للسينماتوغراف إلى المسرح الجديد الملاصق لقهوة “كوكب الشرق” عام 1908 (ص 23). إنّ انتشار العرض السينمائي “في بعض المقاهي من الأسواق الداخلية أدّى إلى انخراط السينما في الأوساط الشعبية التي سمّتها باللهجة العامية سيّما” (ص 24). توزّعت دور السينما لاحقاً على ساحة التل والجوار، وفق لائحة الكاتب الإحصائية للتاريخ كالاتي: “كابيتول، كولورادو، أمبير، أوبرا، بالاس، ريفولي، روكسي، أوديون، رومانس، أمير، دنيا، حمراء، ليدو، ركس، الشرق، ديانا، كواكب، نجمة، الأهرام، الأندلس، بيكاديللي، ستاركو، وفي مدينة الميناء: العلم، كليوباترا، هوليوود، رابحة، راديو، سلوى، فيكتوريا، ليتّضح بجسب بيان صادر عن الأمن العام في 8 آذار 1963، أن عدد دور السينما في طرابلس يبلغ 31 داراً” (ص 28)

يسرد الكاتب كوكبة كبيرة من الأسماء التي ساهمت في الحركتين المسرحية والسينمائية في المدينة، جامعاً عشرات الملصقات في تركيز واضح على علاقة كلّ هذه المؤثرات بالمحيط المدني، وتأثير ذلك على حياة الناس في طرابلس ونمطها، وفق الأنواع الفنية للأفلام الواردة إلى الشاشة من رومانسية، أو ميلودراما، أو الكوميديا، أو الويسترن، العالمية منها أو العربية ثمّ اللبنانية. عمل هادي زكّاك على كلّ دار، فحكى قصتها على لسان أصحابها، أو من تبقى منهم، أو

توارث الحكايات، مستعرضاً الحياة السينمائية التي وردت إلى هذه الدور، وكيف تضاعف حضورها بسبب التحولات والتناقضات لتصوير الدور " من معالم المدينة تسجل الذاكرة وسط النسيان" (ص57)

تركيزاً على أنواق المشاهدين يعرض هادي زكّاك عيّنة لمدينة الميناء البحرية حيث تدور على الدور نوعية أفلام تناسب الذوق الجماهيري العام، من ستالين (بسبب البيئة المحلية اليسارية)، إلى بروس لي، فطرزان وأرسين لوبين، والأفلام المصرية، والبطل الملاك الإسطوري سانتو، وهرقل، ومجموعة الأفلام الهندية التي تستدر الدمع مدراراً، والرحابنة لاحقاً. (الفصل الخامس 235- 288)

هذه العيّنة تبرز بوضوح أهمية دور السينما في التنفيس عن الكوامن عند البحارة الذين كانوا دائماً على موعد مع البحر ومصاعبه، ومع الرزق ومتاعبه، فجاءت " السليما" لتعبّر وتعوّض عما فاتهم من مكامن الفرح في هذا العالم الذي يبدو لهم عاصفاً برياح هوجاء وأمواج متلاطمة مع الساحل المضطربة صخوره

يعجّ الكتاب بالمقابلات الحية مع معاصري الحركة السينمائية والفنون في المدينة. لم يترك الكاتب مصدرًا إلا وقصده ليسجل البدايات، فأتى الكتاب الورقي حياً بمقابلاته، وتحليل الأحاديث والاستنتاج المقصود، خدمة للنصّ الروائي السينمائي (الفهرس ص599). كأنّ المخرج هنا حرص على مشهدية النصوص في توليف إخراجي قادر على أن يسجله تقنياً وفق توارد الصور المتعاقبة في الغرفة السوداء لتظهير الفيلم الملون، بما مضى، وبما اندثر، وقد غابت كلّ دور السينما عن طرابلس، وتحولت إلى مخازن أو أبنية، وراحت ثقافة الأفلام، وخسرت طرابلس شاشتتها الفضية التي كانت توحى وتنقّف وتعلم وتسهم في النهضة الفكرية

ماذا بقي من "السليما" في طرابلس؟ غير مهرجان طرابلس للأفلام الذي يقيمه إلياس خلاط، الناشط من أجل طرابلس الحية، تأكيداً على تطوّر العلاقة بين السينما والمدينة من خلال عرض الأفلام المحلية العربية والدولية من كافة الأنواع (أفلام روائية وثائقية وأنيميشن) (ص595)، في مبادرة تتكامل مع من يعمل على حماية إرث طرابلس وتاريخها، وإعادة تفعيل دورها الحضاري على الخريطة المحلية والعالمية، مع المبادرات التي سبقت من نادي السينما مع رياض ببيضون وسعيد الولي وجان رطل وغيرهم إلى مؤسسة الصفدي سابقاً، وحالياً مع الرابطة الثقافية ومركز العزم الثقافي ورابطة الجامعيين

يواكب الكتاب تاريخ الفن السابع في طرابلس، في استعادة الروح قبل أن يخلف رحيل "السليما" "عنها إرثاً كبيراً من الصور والأصوات" (من الغلاف الأخير) والذكريات

«سيلما» بين دفتي كتاب زكّك

«العرض الأخير» وفاء للذاكرة الطرابلسية

جوزيفين حبشي

على هذه «سيلما» التي سنشاهدها قراءة، وتروي سيرة صعودها وازدهارها وتشابكها مع حياة مدينة عربية اختبرت كل أنواع الأفلام في حياتها، ثم احتضار هذه السيلما الطويل قبل وفاتها، مع هادي زكّك سنجول في تاريخ مدينة عريقة تشهد على سيرة شبيهة بـ«سيلما» رغم انتفاضها ورفضها للموت.

في أحياء مصر الشعبية، يطلقون عليها إسم «سيما»، في الأوساط الشعبية الطرابلسية، يسمونها «سيلما»... إنها السينما التي احتلت مكانة مهمة في حياة عاصمة الشمال. امتدت من ثلاثينيات القرن العشرين حتى نهايته... نلتم يد وسلم شغف عاشق السينما، هادي زكّك

من خلال تأليف كتاب صدر باللغة الفرنسية عام 1997 بعنوان «السينما اللبنانية، مسار سينما نحو المجهول (1929-1996)». كما قدّم مجموعة أفلام وثائقية مثل «يا عمري» (2017)، و«كمال جنبلاط، الشاهد والشهادة» (2015)، و«مارسيدس» (2011)، و«درس في التاريخ» (2009). أيضاً تابع التحولات التي شهدتها بيروت وأنجز أفلاماً عنها وعن المجتمعات الدينية وسيطرة الطائفة.

من خلال «العرض الأخير»، يوقظ هادي زكّك الذاكرة الطرابلسية هذه المرة، وينفض عنها غبار النسيان. ها هو يجمّلنا في رحلة إلى زمن سينمائي جميل، على متن خطوط صفحات كتاب مشهدي بامتياز، سنقرأ وكأننا نشاهده في واحدة من 40 صالة «سيلما» سيمر عليها زكّك في طرابلس. سنقرأ مشاهدة، سنواكب تاريخ طرابلس المعاصر قبل أن تسلم روحها مخلفة إرثاً كبيراً من الصور والأصوات. سنتخيّل الذكريات التي دوّنها والصور التي التقطها بومضة عين وخفقة قلب مع فريقه باستمتاع كلي، من دون أن نلتهي بالبواب كورن أو «البزر» كما يطلب منا المؤلف في خاتمة مقدمة كتابه: «أترككم مع ابنة طرابلس وأتمنى لكم مشاهدة ممتعة، يتخللها



هادي زكّك، مؤلف كتاب «العرض الأخير.. سيرة سيلما طرابلس» هو مخرج لبناني وأستاذ - باحث في معهد السينما IESAV. كما أنه مولود في بيروت قبل بدء الحرب اللبنانية بعام واحد، ومولود من جديد مع كل فيلم وثائقي وفيلم قصير كتبه وأخرجه ليحافظ عبره على الذاكرة. يقول زكّك: «اهتميت منذ صغري بالتاريخ وبالمحافظة على الذاكرة وهذا الأمر جعلني أختار الفيلم الوثائقي منذ أكثر من عشرين سنة كوسيلة إختبار وتقريب وسلاح لمحاربة النسيان والموت. لقد عشت الحرب الأهلية اللبنانية وشهدت نهايتها في مطلع التسعينيات وكيف تحولت فترة «السلام» إلى مرحلة أكثر تدميراً مع إزالة ما عجزت الحرب عن تدميره. فاختفت الكثير من الأماكن المتعلقة بذاكرتنا الجماعية وترافق الإعمار غالباً مع التدمير وفقدان الذاكرة

وضياع الهوية». ويتابع هادي: «لم يأت إهتمامي بالماضي بهدف تمجيده والبقاء على الأطلال، بل لبناء إستمرارية بين الأزمنة تحدد الحاضر في بلد لا يتوقف فيه التاريخ

من أن يكرّر نفسه مؤدياً إلى الكوارث». هادي زكّك الذي شكلت له السينما نقطة الإنطلاق، بدأ بتاريخ السينما في لبنان

إلى فريق العمل كل من الطالبتين ماغالي عون وإفيلين حليس. في بيروت، تم إجراء المقابلات مع الطرابلسيين المقيمين في العاصمة بموازة عمل تقني كبير لرقمنة صور الأفلام والمقالات الصحفية وتنظيم الأرشيف المتعدد المصادر.

مع حلول ربيع 2018، انتقل هادي وفريقه إلى الشمال، وموازة إستكشاف الأماكن وتسجيل الشهادات وتوطيد العلاقات الإنسانية، تمت زيارة مكتب جريدة «الإنشاء» للإطلاع على الأرشيف القيم لهذه الجريدة الطرابلسية العريقة. وقد تحول مكتب «الإنشاء» مركزاً للتقريب عن تاريخ المدينة والبحث عن الأخبار السينمائية لفترة ستة شهور.

في العام 2019، خفّ العمل الميداني لتبدأ مسيرة طويلة مع تفريغ وتنظيم جميع المواد التي تم جمعها خلال سنوات ومزجها مع أرشيف زكاك الشخصي قبل الإنطلاق بمرحلة الكتابة ابتداءً من الصيف. في 17 تشرين الأول، اندلعت الإنتفاضة الشعبية ولقبت طرابلس بعروس الثورة. ويتابع هادي زكاك قائلًا: «ثم جاء عام 2020 ليضيف جائحة فيروس كورونا إلى كل المشاكل التي كنّا نواجهها في حياتنا اليومية وليضعنا في عزلة، كانت العزلة جيّدة للكتابة ولكنّ تدهور وضع البلاد المستمرّ وفساد الطبقة السياسية فشلها وصولاً إلى زلزال إنفجار مرفأ بيروت في 4 آب 2020... كل هذا الإنزلاق جعل مشروع الحياة في لبنان تحدياً يومياً.

يتساءل زكاك: هل تنفع بعد الكتابة؟ هل ينفع التصوير؟ هل أتابع مشروعني وأنتقل بعدها لإنجاز فيلم وثائقي يختتم مشواري مع «سيلمًا»؟ مع إزدیاد الإختناق العام وسيطرة مافيا السلطة وعدم خجلها من تحمّل أي مسؤولية وانتشار الطاعون الكوروني، تحولت كتابة سيرة «سيلمًا» إلى أكسيجين في زمن انقطاعه وإلى محاولة صمود وحياة.

عبر هذه الكتابة، سافر زكاك في الزمن، لم يجد أن التاريخ يختلف في مراحل عدة عن الأحداث التي نعيشها اليوم، وضع المعلومات، حاول التدقيق بها، أخطأ، صحّح، تخيل وبالطبع لم ينجو من إلتباسات الذاكرة الشفهية. حاول تكوين شجرة عائلة «سيلمًا»

2014، إنطلقت مرحلة البحث الفعلي ابتداءً من كانون الثاني 2017، إثر الحصول على منحة للبحث من قبل الصندوق العربي للثقافة والفنون (آفاق). تكثفت زيارات زكاك مع ناتالي روزا بوخر التي تعشق طرابلس وسبق أن رصدت العديد من الصالات السينمائية وجمعت المعلومات عنها في مقال صحفي. بحثاً معاً عن الأماكن وكيفية الدخول إليها والقيام بالمقابلات المتنوعة والبحث عن صور الأفلام التي عُرضت بين الخمسينيات ونهاية القرن العشرين، مع إجازة عرضها من الرقابة بالإضافة إلى بحث في الأرشيفات الشخصية والعامة. كما ترافقت هذه المرحلة

تقديم مجموعة كبيرة من الأفلام مع العناوين بلغتها الأصلية وبالعربية والإنكليزية وأطلب منكم تفادي تناول «البرز» ومتابعة الأحداث حتّى النهاية. فليطلق العرض!»

إنطلق العرض فعلياً عندما ذهب زكاك لاكتشاف صالات السينما المقفلة أو ما تبقى منها في طرابلس برفقة الصحافية الألمانية - الفرنسية ناتالي روزا بوخر سنة 2014. «يومها أحسست بشعور اختبرته قبل أكثر من عشرين عاماً عندما اكتشفت صالات السينما القديمة في وسط بيروت قبل إزالتها مع مشروع إعادة إعمار المدينة. تأملت من منطلق تاريخي لأن إزالة معابد السينما كانت تمحي تاريخ وصول السينما إلى بلادنا وازدهارها، وكل هذا الإرث العريق من هندسة وخصوصية للمكان الذي ينحصر اليوم في المولات التجارية.

لم تمثل هذه الخصوصية شيئاً للقيمين على مشاريع إعادة الإعمار أو الهدم فكان مصير صالات السينما شبيهاً بمصير البيوت القديمة والمساحات الخضراء التي تقلصت لتحل مكانها المساحات الباطونية البشعة التي تفتقر للهوية. في هذا الإطار، بدت طرابلس وكأنها مجمدة في الوقت بسبب الأحداث التي استمرت بزعة إستقرارها ولوّثت صورتها وزادت من حال الفقر التي تضاعفت فيها بشكل دراماتيكي. لقد لعبت بيروت غالباً دور البطولة في معظم الأفلام اللبنانية ولم تحظ المدن الأخرى بهذا الإهتمام. فظلت طرابلس، المدينة الثانية في لبنان وكأنها تختبئ عن الأنظار مع تاريخها الغني».

من هنا، شكّل اكتشاف صالات السينما في طرابلس رحلة في الزمن بالنسبة لهادي زكاك وكأنّ الأسماء التي عرفتها بيروت مثل الأوبرا والريفولي والروكسي والدنيا وأمبيركان لها شقيقات ما زال أثرها موجوداً في عاصمة الشمال.

«مع تدمير سينما ريفولي سنة 2016، أصبحت الحاجة ملحةً للإنتقال إلى مشروع سرعان ما أصبح مزدوجاً وبحاجة لوقت طويل لكي يضمّ كتاباً وفيلمًا وثائقيًا بهدف تسجيل الذاكرة الجماعية والشفهية، ونقل علاقة أبناء وبنات طرابلس بالسينما كمكان وكثقافة اجتماعية وسياسية».

بعد الزيارة الأولى الإستكشافية سنة

من خلال «العرض الأخير» يوقظ هادي زكاك الذاكرة الطرابلسية هذه المرة، وينفض عنها غبار النسيان. ها هو يحملنا في رحلة الى زمن سينمائي جميل

مع عملية تصوير أولية أثبتت فعاليتها بسبب اختفاء بعض الأماكن أو تحولها، فالصورة التي تأخذها اليوم قد تصبح سريعاً صورة أرشيف. أيضاً شكل سكان المدينة مجموعة من «الحكواتيين» يتذكرون مرحلة صعود وازدهار وسقوط «السيلمًا» باللهجة الطرابلسية.

مع مطلع سنة 2018، إنتهت مرحلة أولى من البحث لتبدأ مرحلة ثانية سيتمزج خلالها البحث الميداني المكثف والتصوير برقمنة الأرشيف ومتابعة إجراء المقابلات، وانضمت



وإعادة إحياء مسار صالات وسط المدينة وشوارعها الداخلية وأحيائها الشعبية والميناء. واكب تحولات طرابلس ودخولها في الحداثة والتفاعل بين تاريخها والأفلام المعروضة وكأنّ تاريخ السينما والمدينة يلتقيان في محطات عديدة.

عاد إلى المدرسة والمنزل والحي والمعيد. حاول أن يكون مشاهداً يعيش جميع الطقوس، يحلم ويخاف ويحب. إتهم الأفلام فعاد بدوره صغيراً يقع في حب السينما منذ المراهقة لتصبح مرادفة لحياته.

من يشكر؟ «هل يمكن أن أبداً يشكر المدينة؟ أشكرها أنها قبلت أن تشاركني ذكرياتها وتكشف لي عن البعض من كنوزها التي غرقت في بحر من النسيان. هل يمكن لذكائك بناء علاقات صداقة في عمر متقدم بعيداً عن المدرسة والجامعة والعمل؟



**في بيروت
كان مصير صالات
السينما شبيهاً بمصير
البيوت القديمة
والمساحات الخضراء
التي تقلّصت لتحلّ
مكانها المساحات
الباطونية البشعة
التي تفتقر للهوية**



نعم لقد بنيت صداقات جديدة في طرابلس وشعرت بها بالأخص كلما كنت أرافق مايز الأدهمي وجان رطل (جريدة «الإنشاء») في الشوارع الصغيرة، أستمع إليهما، أتوقف معهما لقراءة أوراق النعوة التي تنتشر على جدران المدينة، لننتقل بعدها إلى لقاء شهّي حول المائدة الطرابلسيّة. أطرّح عليهما

مصائر كل ما شكل تلك «سيلما».

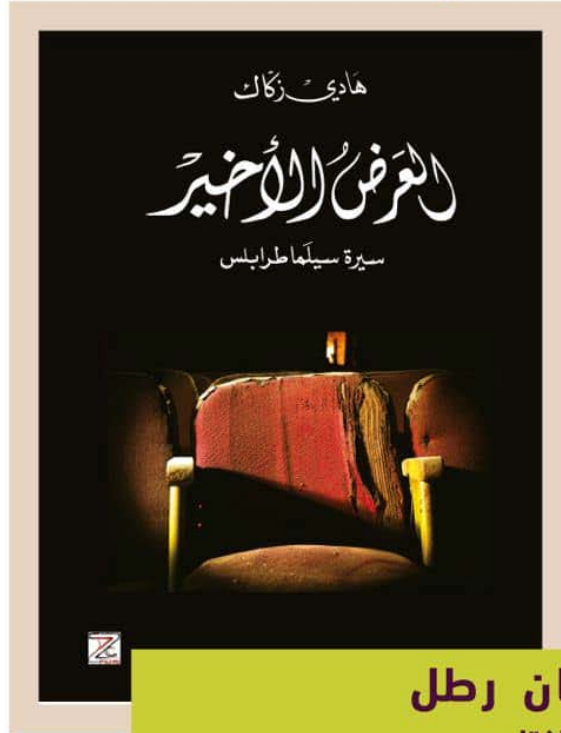
تتساءلون ربما كيف استقبل المجتمع الطرابلسي المحافظ علاقات الغرام والقبيلات على الشاشة في ذلك الزمن؟ وكيف تحولت نجمة الكتاب «سيلما» الملجأ الأجل للهرب من فظائع الحرب؟ وما هي الأفلام التي كانت تعرض يومها ولماذا سمحت الرقابة بمشاهد ساخنة في ظل الأوضاع السياسية المحمومة؟ كل هذه التساؤلات وغيرها يجيبنا عليها هذا الكتاب الذي يثبت أن طرابلس ليست فيلمًا دمويًا راعيًا مأساويًا، طرابلس ليست فيلمًا من بطولة التطرف والموت والحرمان كما يحلو للبعض تصنيفها أو تصويرها. طرابلس هي عروس الثورة، والعاصمة الثانية للبنان. إنها التاريخ الثقافي والفني والاجتماعي والإنساني الواقعي والحقيقي، وليست مجرد فيلم... «سيلما».

الكتاب متعة حقيقية لكل عشاق السينما والتاريخ، ومتواهر حاليًا في مكتبة دار الفرات، وسيتم إطلاقه من طرابلس في شهر تشرين من خلال مهرجان طرابلس للأفلام. في حال سمحت الظروف. كما أن توسيع التوزيع على المكتبات رهن بدوره بالظروف اللبنانية.

الأسئلة وأراقبهما يسيران في شوارع هرمت وهي تنتظر الوعود الرنانة.

أخيرًا وليس آخرًا، يتركنا هادي زكّاك مع «سيلما» التي ستخبرنا عن سيرة المدينة في القرن العشرين وصولاً إلى الحاضر. سيرة ستتضمن في 11 فصل، شجرة العائلة (الحكواتي وخيال الظل وصندوق الفرجة...) والجيل المؤسس (سينمات البروكه وأمبير وروكسي ودنيا وركس وأوبرا...) ونجمات الخمسينات (سينمات ريفولي وأمبير وبلاس وأوديون ورومانس ومتروبول وشهرزاد والكابيتول وكولورادو) ونجمات الأحياء (سينمات ريّو وليدو وسميراميس وماجستيك والنجمة والكواكب والشرق والقاهرة والبيكاديلي وستاركو وديانا) ونجمات الميناء (سينمات العلم وهوليود وكليوباترا ورايو وسلوى ورايحة وفكتوريا) ومدرسة السينما وطقوس وعادات (سيلما في العيد وجمهور سيلما وصالون أو بلكون؟ بزر أو فلافل؟ ..) أما الفصل الثامن فيروي فيلم طرابلسي طويل، وصولاً إلى سينما الحرب في الفصل التاسع، والسينما بين الحياة والموت في الفصل العاشر، لينتهي الفصل الأخير مع

**ندوة حول كتاب "العرض الأخير"
لهادي زكّك مع د. خالد زيادة**



يدير الندوة جان رطل

يلي الندوة توقيع الكتاب

الجمعة ٨ تشرين الاول الساعة ٦:٣٠ مساء

بيت الفن - الميناء - طرابلس

هادي زكاك: كانت صورة المدينة العربية النموذجية التي دخلت الحداثة والسينما مكان يحضنها

زهرة مرعي- جريدة القدس العربي- 17 أكتوبر 2021.



بيروت - «القدس العربي»: «العرض الأخير سيرة سيلما طرابلس» مؤلف يتخطى عنوانه، ليدخل إلى عرض وتحليل سياسي واجتماعي وأمني مؤثر في حركة السينما وصلاتها في عاصمة الشمال اللبناني. أما «سيلما» فهو تعبير عامة الناس في المدينة وهم نبضها وروحها. ما أن يقع المؤلف بين اليدين حتى تتسارع الأسئلة. ففي زمن الضل والنقهر ثمة كتاب يوثق لـ«معابد السينما» في طرابلس الفيحاء، وفي حلّة أنيقة تليق بها، وبالذاكرة الخصبة والجذابة محققاً انتصاراً على النسيان والموت. أما لماذا طرابلس وكل هذا البحث والتنقيب في زوايا «سيلماتها» التي قاربت ربما 40؟ الجواب عند صاحب الكتاب المخرج السينمائي والكاتب والأستاذ الجامعي هادي زكاك. ولشدة الحميمية في مقاربتة لتفاصيل إنسانية بحث عنها بمثابة قفير النمل في جمع قوته، تعتقده وكأنه ولد وترعرع وكبر في ربوع تلك المدينة العربية الساحلية الجميلة المهملة لبنانياً.

يتألف الكتاب الصادر عن دار الفرات في بيروت من 618 صفحة من الحجم الكبير، ويضم أكثر من 750 صورة. أن تقلب صفحة منه بعد أخرى تجدك منجذباً للمزيد، للنص السلس والغني بالمعلومات والأحداث. نجح الكاتب في تدوين شهادات لمميزين تخرجوا من المدارس الإرسالية الكبيرة التي كانت في المدينة. وذكر أن بعض الأساتذة في بعض المدارس والمنتمية لمختلف الطوائف، كانوا يعتبرون السينما مفسدة للأخلاق ويدعون لعدم ارتيادها. لكن التلامذة أنفسهم سجلوا سنة 1959 اضرباً بعدم دخول الصفوف إلا بتجاوب وزير التربية مع مطلبهم برفض رفع سعر البطاقة، ونجحوا وكانت لهم بطاقة طلابية.

ثابر هادي زكاك في توثيق شبه متكامل لسيلما طرابلس «قبل أن تُسَلَّم الروح» وأنجز عملاً مؤثراً، معه هذا الحوار:

○ «العرض الأخير» يقرأ في تردي حال السينما وصولاً إلى اندثارها في عاصمة الشمال طرابلس. كيف خطرت لك مقاربتة؟

• السينما شغفي، بعد الحرب الأهلية قصدت وسط بيروت لأكتشف صالاتها، وسريعاً محى مشروع إعادة الإعمار وجودها. تلقيت دعوة من صحفية ألمانية فرنسية لمرافقتها في جولة على صالات السينما في طرابلس سنة 2014. كان مذهلاً مدى انتشار الصالات من ساحة التل، إلى باب التبانة، إلى المينا والأحياء الداخلية وكأنها جزء لصيق بحياة المدينة. وبالتدريج بدأت بحثاً طويلاً ومضنياً تبلور سنة 2017 بمعنى إعادة تكوين صورة المدينة وتاريخها من خلال علاقتها بمجموعة من هذه الصالات والبحث عنها ورصدها.

○ بحدود 40 صالة سيلما في طرابلس بدأت منذ ثلاثينيات القرن الماضي. ألم تكن فائضة عن الحاجة؟

• إنها نقطة مهمة في كيفية تطور صالات السينما، والمرحلة الذهبية كانت في سنوات الخمسينيات من القرن 20 التي شهدت ازدياد صالات السينما. يمكن الحديث عن معدل 30 صالة، بعضها يفتح وآخر يقفل. المهم أن الصالات منتشرة في أنحاء المدينة كافة، ولكل منها طابعها، وتختلف بين العرض الأول، وأنواع الأفلام التي تعرضها. شكلت السينما سلوى لأهالي المدينة بامتياز، إنها مكان اللقاء وربط العلاقات الاجتماعية، والمكان المؤثر في تطور تلك العلاقات. كانت للسينما دورها في العلاقات الاجتماعية، ولم يكن لطرابلس أماكن أخرى للهو أو التسلية. أصبحت السينما المعبد الجامع للنشاط الثقافي وحتى السياسي، وعروض المسرح والسينما بالطبع.

○ كم تأثرت طرابلس المدينة المحافظة بالسينما سواء بالانفتاح الاجتماعي والسياسي والحدائي؟

• شكلت جزءاً من دخول المدينة بالحدائث. نحن حيال مجتمع محافظ صحيح، ومن خلال السينما نقرأ العلاقة بين الجنسين، وارتياهما الصالات معاً. أين سيجلسون، وما الفرق بين مقاعد الصالون والبلكون؟ وما هو أثر السينما على المجتمع، وعلى المرأة تحديداً ومن خلال السينما المصرية خاصة؟ حضور السينما وبلغة عربية سيترك أثراً مضاعفاً. صالات عدّة اختصت بعروض السينما المصرية التي كانت منتشرة جداً ولها شعبيتها. أثرها الثقافي كان كبيراً، وكذلك على العلاقات بين الجنسين. وفي تلك المرحلة تراجع ظهور الحجاب، وازداد حضور المرأة وفعاليتها. وانتشرت المقاهي والعديد من مظاهر الحدائث والتي تبلورت منذ أواخر الأربعينيات وصولاً إلى أواخر الستينيات من القرن الماضي، رغم تسجيل حركات احتجاج أحياناً على بعض المظاهر من مجموعات محافظة جداً. لكن بدت شعبية السينما أقوى وفرضت نفسها في أوساط واسعة وهذا مهم للغاية كونها أصبحت المكان الجامع لكافة الطبقات الاجتماعية.

○ وهذا ينعكس على طرابلس ومحيطها كونها مؤثرة فيه؟

• طبعاً فهي المركز، والمحيط بكامله كان يقصدها لحضور السينما. لطرابلس علاقة وطيدة مع الشمال برمته، وكان يأتيها مشاهدون للعرض الأول للأفلام من زغرتا واهدن. وفي تلك المرحلة كانت المدارس في طرابلس، وكان الأهالي يسكنوها للعيش ومن كل الشمال. وكانت لهم صلة وثيقة بمدرسة السينما كما بمدرسة الحياة. خلال بحثي التقيت بأناس من الشمال ومن خارجه كانوا يعيشون في طرابلس. كان للمدينة كافة عناصر الحياة المدنية من حيث العمل، وهذا ما تبلور إثر إنتقال شركة نفط العراق إلى طرابلس بعد نكبة فلسطين. احتضنت طرابلس حركة ثقافات مختلطة تفاعلت داخلها، وبشكل تلقائي

كانت السينما مكاناً للجميع في لقاء يومي أو أقله مرة أسبوعياً.

○ يشعر المتصفح للكتاب وكأنك أحصيت أنفاس الزمن ولم تترك شاردة أو واردة بهدف الكمال. هل كنت حيال خطة عمل؟ وهل فتح الواقع مزيداً من الآفاق؟

• بداية استصعبت العملية لأنني من خارج المدينة، ولم أكن حيال جردة لصالات السينما وماهية عروضها. شكلت السينما نافذة للدخول إلى المدينة بحد ذاتها، وتطورها والمراحل التي مرّت فيها. شعرت بثقل كبير واستغرقت وقتاً للتفاعل مع كافة العناصر. كنت أجهل مدى قدرة الوصول إلى كافة تلك السينمات وقراءة تاريخها وتخيلها. فأنا لا أملك ذكريات خاصة مع هذه الأماكن. في 2014 صورت بعض المشاهد وحصلت على معلومات أولية، بعدها اكتشفت أنني في صراع مع الزمن. فالصالات التي شاهدتها بدأت تختفي، أو تمّ تحويلها. الصراع مع الوقت هو صراع تلقائي مع الموت والمدينة بحد ذاتها وكأنها في حالة «كوما». وفيما كانت طرابلس استثناء في حالها قبل 2019 بات لبنان كله يشبهها بعد الانتفاضة. إنه الاحتضار.

○ بدا في الكتاب أن المؤثرين في سيرة طرابلس قديماً وحديثاً أبدوا تعاوناً؟

• صحيح. وكنت أحتاج قدر المستطاع الإطلاع على آراء مختلفة ومن أجيال مختلفة. فأنا حيال تغطية مرحلة طويلة وأحتاج لشهادات من ناس تبدأ أعمارهم في العشرينيات وصولاً إلى نهاية التسعينيات. التقيت مسنين كثر وقبل صدور الكتاب للأسف فقدتهم. استلحقت ذاكرتهم التي بدأت تخونهم أحياناً. كما بحثت في أرشيفهم الشخصي، وفي الصحف التي كانت تصدر في المدينة. واكتشفت المدينة من خلال كتابها والباحثين. وشكل الناس العاديون شواهد عن تلك المراحل كباعة الخضار، بهدف تكوين نظرة عامة ومن مختلف فئات الناس. سلوك هذا الطريق خوّني أنا الآتي من الخارج تكوين نظرة عن الداخل.

○ وكأننا نشته أو نتيقن بأن التشدد الإسلامي هو من أطبق على سيلما طرابلس ونزع منها أنفاسها الأخيرة؟

• وفي الذاكرة الجماعية كذلك رأي يقول أن السينما انتهت مع إندلاع الحرب الأهلية، والتحويلات التي طرأت على المدينة بدءاً من سنة 1975. قد تبسّط الذاكرة الشفهية الأمور، أو تُجمّل الماضي. دوري هو التفكيك، وللقيام بهذه المهمة أحتاج لعناصر من المرحلة ذاتها. فقد اكتشفت في أعداد من جريدة «الإنشاء» عودة السينما بشكل شبه طبيعي بعد حرب السنتين. بالوصول إلى مرحلة حزب حركة التوحيد سنة 1983 ليست السينما وحدها التي تأثرت، بل المدينة برمتها كانت تحت ضربة قاسية. ولم يعد بإمكانها الخروج كلياً من هذه الضربة، رغم محاولة العودة للسينما إثر دخول الجيش السوري في سنة 1985. وكانت محاولات لإعادة إحياء هذه السينمات في منتصف التسعينيات، مع دخول فكرة السينما الجديدة المتواجدة ضمن مجمع سينمائي.

○ كذلك أخبرك عاشق السينما والناقد اميل شاهين أن بعض الإرساليات كانت تتجسس على تلامذتها إن كانوا يخالفون التحذيرات ويقصدون السينما المضرة بالأخلاق؟

• ذكرت التشدد الديني والحذر من السينما في مراحل متعددة من الكتاب. الخوف والحذر من السينما من بعض المراجع والأساتذة موجود، وفي الوقت نفسه نرى السينما وقد صارت ضمن مدرستي الطليان والفرير. ومدرسة الطليان فتحت

صالتها للجمهور من خارجها. وعن نوع الأفلام التي كانت المدارس تختارها لتلامذتها، فمنها فيلم «شفيقة القبطية» المصري حيث ترد فيه عن خطاياها، وتدخل الدير. وكذلك الفيلم الذي يعرض سنوياً في أسبوع الألام وهو «حياة وآلام المسيح» المكسيكي المبلج للعربية. هذا مسيحياً، إسلامياً كانت ظاهرة فيلم العيد، وكأن السينما كانت هدية العيد بامتياز.

○ خلال بحثك عن السينما لتوثيقها في كتاب هل كان فيلم «العرض الأخير» يفوز بلقطات خاصة؟

• انطلق العمل ولم أكن قد حسمت بعد إن كنت حيال فيلم أو كتاب. عندما توالت اكتشافاتي وجدت أن معلومات كثيرة من الجهل عدم ضمها في كتاب، وأخرى من الحرام أن لا تكون في فيلم. وهكذا بت بمواجهة مصاعب تخطيط وأيضاً تمويل. وهكذا تقدم مشروع الكتابة واستغرق وقتاً، وكنت أوثق المعلومات بالصوت والصورة، وهي ستشكل المواد الأولية للفيلم المقبل «العرض الأخير».

○ ورد في الكتاب أن تلامذة طرابلس أعلنوا الإضراب بعدم دخول الصفوف اعتراضاً على رفع سعر بطاقة السينما. فماذا سيقول التلامذة عن سعر البطاقة الحالي؟

• صحيح. طرابلس مدينة نموذجية بأحداثها قياساً ببقية المدن. الشهر الماضي قدمت كتابي في عمان، وسمعت من الأردنيين قصصاً مشابهة في سينمات عمان وتلقائياً ستكون نفسها في سينمات حلب أو بغداد أو غيرها. طرابلس تشكل رسماً لمرحلة متكاملة شهدها العالم العربي، وكأن طرابلس تشبه المدن الأخرى دخلت في مرحلة الحداثة، ومن ثم داهمتها كافة أنواع الأنظمة الاستبدادية والمتشددة وصولاً إلى الحروب الأهلية، والتدمير والتفتيت الذي ينطبق اليوم على أي مدينة سورية أو عراقية. لهذا طرابلس نموذجية جداً في هذا الصدد. نجحت مظاهرات طرابلس وحقق الطلاب دفترهم الخاص وسُمح لهم بدخول الصالون لأنه الأرخص. وهذا يُثبت مدى تعلق الشباب بالسينما، ولأجلها ناضلوا. وهنا تكثر القصص حول التلامذة الهاربين من قَداس الأحد أو من صف المدرسة لحضور فيلم. نفهم أهمية المظاهرة لأجل السينما لأن ارتفاع بدل البطاقة كان بالنسبة للطلاب تقييد حرية.

○ كتبت «تواكب سيلما حياة طرابلس قبل أن تُسلم روحها». تسليم روح أم اغفاء طويلة؟

• في المرحلة الأخيرة من تدوين الكتاب كانت الانتفاضة ومن ثم كورونا، والإقبال. وتوالت الأسئلة الكبيرة عن السينما ليس عن طرابلس ولبنان بل عالمياً. كنت بصدد صالات مقفلة في طرابلس فصارت كافة صالات العالم مقفلة وفجأة. ومع تدفق مواقع الستريمينغ مثل نتفلكس تهدد وجود صالة السينما. العودة صعبة عالمياً فكيف بصالات طرابلس؟ عنوان العرض الأخير ينعكس معاً على السينما والبلد، وكأننا نشهد موت واحتضار مرحلة عشناها، بانتظار تبلور المرحلة الجديدة. «سيلما» ننتظر العيش مع كائن جديد.

○ ومتى فيلم «العرض الأخير»؟

• ليس لي تحديد التاريخ. أبحث عن إنتاج، والمطلوب نفس طويل فنحن في زمن التدهور الكامل. والتحدي الأكبر كيف استمر يومياً على قيد الحياة لأتمكن من الإنتاج؟

المخرج هادي زكّاك يرفع الستار عن «العرض الأخير» لسينما طرابلس

كتاب وفيلم يطاردان مائة سنة من حياة عاصمة لبنان الثانية

بقلم سوسن الأبطح، جريدة الشرق الأوسط

الأربعاء - 28 شهر ربيع الأول 1443 هـ - 03 نوفمبر 2021 م رقم العدد [15681]

سريعاً أجهزت المعاول بعد انتهاء الحرب الأهلية، على صالات السينما في بيروت. كان المخرج والباحث اللبناني هادي زكّاك يسابق العدم، وهو يبحث عما تبقى من صالات ليؤرشف ويصور ويوقف الزمن، فيسبّقه الخراب. عام 2014 طلبت منه صحافية ألمانية - فرنسية مرافقتها في جولة على سينمات طرابلس، ليكتشف هناك، كمأ هائلاً من الصالات المقفلة، التي تمتد من ساحة التل وسط المدينة إلى باب التبانة وساحة النجمة وصولاً إلى الميناء. بعدها بثلاث سنوات، كان مشروعاً قد تبلور، وهو إعادة تركيب مسار المدينة الحديث من خلال قراءة حياة هذه الصالات، في صعودها، وهبوطها قبل توقفها الكلي. خلال فترة التجوال والبحث التي قام بها زكّاك، كانت بعض الصالات، تختفي من الوجود. عرف بأن عليه أن يسرع، لأن الهدم أسرع. بين أن يجمع المعلومات في كتاب أو يشهر كاميرته وهو المعروف بأفلامه الوثائقية، ويصور هذا التراث المهدد في أي لحظة بالزوال، قرر أن يضرب عصفورين بالحجر نفسه. فأصدر كتاب «العرض الأخير، سيرة سيلما طرابلس» - هكذا يلفظ الطرابلسيون «سينما»، أما الفيلم فهو في طور التحضير.

بصفحاته التي تفوق 600 وأكثر من 700 صورة، يبدو الكتاب موسوعة توثيقية لحياة مدينة عربية نموذجية طوال قرن في ظل السينما. أرشفة دقيقة، عميقة، لمرحلة تاريخية مفصلية، وما رافقها من تحولات سياسية واجتماعية طالت طرابلس، من خلال رصد العلاقة الوطيدة بين الناس وما فعله بهم الفن السابع. عمل زكّاك في كل الاتجاهات، بحث في الكتب، قرأ مذكرات لطرابلسيين، نبش في أرشيف صحف محلية، أجرى مقابلات مع شبان وطاعنين في السن، كشهود عيان، زار صالات العرض المهجورة، تقصى تاريخها وملكيّاتها وما استجرت من مشكلات.

حين نسأل المخرج هادي زكّاك عن سبب عنوانه كتابه بـ«العرض الأخير»، يقول إن «كل شي يوشك أن يموت، لذلك نبدو كأننا في العرض الأخير على كل المستويات». والأشياء بين المدن متشابهة إلى حد بعيد، «طرابلس نموذج عن كثير من المدن العربية، القصص نفسها يمكن أن نسمعها، موجة الأفلام نفسها مرّت على الصالات، التقاليد متشابهة، وكذلك الدمار والحروب كما في سوريا والعراق وغيرها. من هنا تأتي أهمية العمل على تفاصيل مرت بها مدينة لبنانية مثل طرابلس».

ثمة صالات اختفت وهدمت مثل «ريفولي» التي تمكن زكّاك من تصويرها قبل الإجهاز عليها، وأخرى تحولت إلى محال تجارية، ومخازن، ومستودعات، أو تركت نهياً للغبار وخبوط العنكبوت.

هادي زكّاك، المخرج والأستاذ الجامعي، الذي ولد قبل سنة من اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية، جاء غريباً على مدينة لا يعرفها، ليكتب عن مرحلة لم يشهدها، أصغى كثيراً، عقد صداقات، سار أياماً في الشوارع لاكتشاف الأماكن. تجاوب الناس كان جزءاً أساسياً من نجاح العمل. «الموضوع متشعب» يقول زكّاك لـ«الشرق الأوسط»: «كان لا بد من منهجية صارمة وعسكرية، كي لا تنتشت الأفكار. عملت على تقسيم المناطق جغرافياً، واشتغلت على منطقة تلو أخرى. هكذا كان يمكنني أن أحدد عدد الصالات، وعدد الأشخاص الذين أستجوبهم، وبدت الصورة أوضح. لكن لم تكن الأمور سهلة ولا الشهادات موثوقة. «أزعجتني المبالغة في تجميل الماضي عند الشهود المتحدثين. الذاكرة الشفهية لا تؤمن. ذهبت إلى أرشيف جريدة الإنشاء المحلية لأتمكن من ربط الوقائع، وتصحيح ما أفلت مني، واكتشفت تفاصيل لا تخطر على بال».

تمكن الكتاب من رصد 40 صالة في المدينة، وتتبع مسارها. وهي ليست صنفاً واحداً، ولم تعيش حيوات متشابهة، كما أن أقدارها تغيرت صعوداً وهبوطاً. بعض الصالات ألصقت بها نوعية معينة من الأفلام، فباتت سينة السمعة وأخرى 5 نجوم. «ما لا يعرفه الناس أن شركات الإنتاج هي التي كانت توزع أنواعاً مختلفة من الأفلام وتخص بها الصالات. بعض الصالات تصعد فتصبح نجمة ثم تأفل، وتبرز غيرها. لم تلفتني الصالات الكبرى المعروفة بقدر ما وجدت نفسي مهتماً، بتلك التي كانت في الأحياء الشعبية مثل (الشرق) و(الكواكب) وصالات منطقة الميناء، حيث كان انتشارها كثيفاً». سار زكّاك كثيراً على قدميه ليكتشف ويتحسس نبض الحياة. نام في طرابلس، ليصحو في اليوم الثاني إلى جانب دار سينما تبعد عنه خطوات. «فهمت من هذه التجربة، فكرة أن يقطن الشخص بقرب سينما ويرتادها كأنه يدخل بيت الجيران، أو أن تسأل عن سينما (دنيا) التي كانت شهيرة ذات يوم، فلا يعرف أحد إن كانت قد وجدت أصلاً، أم لا. المفاجأة كانت في حجم بعض الصالات وكبرها، وهندستها كما جمالياتها».

أواخر القرن التاسع عشر، بدأت حركة مسرحية في طرابلس. في الثلاثينات من القرن العشرين أخذت دور السينما تزحف صوب المدينة. في منتصف القرن، بلغ الازدهار ذروته. في الكتاب نقرأ أنه بحسب بيان صادر عن الأمن العام اللبناني في 8 مارس (آذار) 1963، فإن عدد دور السينما في طرابلس بلغ 31 داراً. حتى القرى والبلدات، عرفت الصالات والعروض ونوادي السينما التي انتشرت في طرابلس أيضاً، وناقشت الأفلام بعد عرضها، وهي تجمع المثقفين والمهتمين. جاءت الحرب الأهلية عام 1975، لتوجه ضربة كبيرة لهذا النشاط الاجتماعي المؤثر، لكن مع هدوء المعارك بعد حرب السنتين، حاول الناس استعادة حياتهم الطبيعية حتى عشية الاجتياح الإسرائيلي عام 1982، لكن مع دخول الجيش السوري سنة 1985 وما

تلاه من معارك في طرابلس، وجهت ضربة قاسمة للسينما ولعلاقة الأهالي بها. «لا غرابة في هذه الفترة أن ينتشر نوعان من أنواع العروض، نوادي السينما التثقيفية، ونقاشاتها الجادة والعميقة إلى جانب استمرار عمل صالات تعرض أفلاماً إباحية، فيما غابت العروض اليومية المعتادة، بعد أن أغلقت الصالات أبوابها، واكتفى جمهورها الواقع تحت وطأة الحرب بأفلام الفيديو كاسيت التي غزت الدكاكين، وجاءت بديلاً مناسباً، في فترة صعبة». من عجائب الأمور أن يتحول مدخل سينما «ريفولي» بعد إغلاقها إلى متجر لبيع أفلام الفيديو. وهو ما يصفه زكّاك بأنه «نوع من الاستسلام للأمر الواقع، ومحاولة الاستمرار حتى لو اضطر من يدير السينما المهزومة للتعامل مع العدو». مع انتهاء الحرب، بدا أن الصالات القديمة لا قيامة لها، وجاءت بديلاً عنها تجمعات الصالات الحديثة، التي تسببت بقطيعة مع الجيل السابق، إذ إنه لم يرتدِ هذه الصالات وتركها للأولاد وربما الأحفاد. أما مع كورونا والانهيال الاقتصادي، فلربما كبوة جديدة، قد أصابت الصالات الجديدة التي تجد صعوبة في استعادة نشاطها.

يشعر زكّاك بأنه كان في سباق مع الوقت، ليفوز بآخر الشهود على تلك المرحلة الذهبية للسينما. «هؤلاء الذين ولدوا في عشرينات وثلاثينات القرن الماضي، يرحلون واحدهم بعد الآخر». تماماً كما تختفي الصالات التي ذهب يصورها ويتعقب سيرتها. «أغرب ما في الأمر، أنني كنت أزور أناساً في بيوتهم يعيشون قرب صالات قديمة، لأستمع لذكرياتهم معها، فيسألونني هم إن كانت هذه الصالات لا تزال تعمل. كأنه عالم انقطعوا عنه بالكامل، وإن كانوا جغرافياً على التصاق به.»

جال زكّاك الصالات واحدة واحدة، استمع إلى حكاياتها ممن عرفوها. المهمة أصعب مما يتصور البعض. «الدخول إلى هذه المباني التي هجرت وأغلقها أصحابها، دونها عقبات، منها من لا تجد من يفتحها لك، بعضها معروض للبيع أو الإيجار، بعض آخر معلق بمشاكل عقارية أو ضريبية، ومنها ما هي مرتبطة بجهة سياسية، أحياناً كنا بحاجة لإزالة حائط كي نعبّر إلى الصالة. الدخول إلى هذه الأماكن يفتح الباب على مشكلات تشبه ما تعاني منه المدينة نفسها، لنكتشف كم أن الأمور معقدة ومتعقّنة. نحن نتحدث عن دور لم يدخل إليها أحد، منذ عشرين أو ثلاثين سنة، تعاني من تسربات صرف صحي، أو تكاثر الجرذان، لهذا حين يفتح الباب يأتي السكان ليكتشفوا ويستعيدوا الذاكرة.»

يتحدث الكتاب عن السينما كامتداد لليومي، كجزء من الحركة الحياتية. كأنما صالات العرض هي امتداد لما هو خارجها. التقاليد المحافظة في طرابلس لم تمنع النساء من ارتيادها أفواجاً مع أولادهن ومن دون صحبة الرجال. وحين يعزم الخطيب خطيبته، لا بد أن يصطحب معها عائلتها. أما العيد فمناسبة إضافية للاحتفاء بالأفلام. يقول زكّاك: «ظهر معارضون، يريدون تحطيم البوسترات، لكن السينما هي التي فازت في النهاية. حتى حينما اعترض الطلاب على ارتفاع التسعيرة، تمكنوا من انتزاع حقهم في بطاقات دخول مخفضة، بعد تظاهرات واحتجاجات.»

الكتاب شهادة على ما كان لمدينة طرابلس من أهمية في تلك الفترات الذهبية، يروي الكاتب: «إن نجوماً كباراً كان يأتون لمواكبة أفلامهم ولقاء الجمهور. عبد الحليم حافظ أحد هؤلاء، فقد أتى أكثر من مرة، إحداها كان إلى سينما (بلس) بمناسبة عرض فيلم (أبي فوق الشجرة). أما المغنون فكانت طرابلس على خريطة جولاتهم، يقيمون حفلاتهم فيها قبل الذهاب إلى حلب ودمشق، ومن بينهم أم كلثوم التي غنت في مسرح (الإنجا)، وهو بدوره زال من الوجود، من فترة ليست ببعيدة.»

الكتاب التوثيقي الأنيق، صار بين أيدينا إذن، فيما العمل جارٍ على الفيلم الذي قد يحمل عنوان الكتاب نفسه. فالمخرج المفتون بالذاكرة والأرشفة وأنجز 20 фильماً وثائقياً أبرزها «يا عمري» و«مرسيدس»، مشغول هذه الأيام، بالتركيب السردي، واستكمال نواقص فيلمه الجديد.

يقول زكّاك: «أزور مدناً عربية، وأكتشف سينماتها، وأرى أنها تتشارك الكثير فيما بينها. في الجزائر وفي عمان رأيت هذا وفي مدن عديدة أخرى. الهندسة الداخلية، والإهمال الطويل، والهجر، ورائحة الرطوبة التي نشتتها في سينماتنا القديمة، هي ذاتها.»

أما لماذا طرابلس، وكيف وجد فيها زكّاك بدلاً عن ضائع؟ فلأنها «نجت من التدمير السريع بسبب الإهمال واللامبالاة، وهو ما أبطأ الهدم والتخريب. كل التركيز كان على إعمار بيروت، ذاك ما جنى عليها، وحرّمها صالاتها، وأشياء أخرى.»

هادي زكاك

توقيع كتاب «العرض الأخير: سيرة سيلما طرابلس»
الاثنين 22 تشرين الثاني (نوفمبر) – س: 16:00 - مسرح «مونو»

عروض أفلام: على مدى ثلاثة أيام (19، 20، و21 تشرين الثاني/نوفمبر) في سوق مدينة جبيل يحتفي المهرجان بتجربة المخرج اللبناني هادي زكاك بين بيروت (مسرح مونو) ومدينة جبيل. عند الرابعة من بعد ظهر الاثنين 22 تشرين الثاني، يوقع زكاك كتابه الجديد «العرض الأخير: سيرة سيلما طرابلس» في «مسرح مونو». يروي الكتاب سيرة سينما طرابلس التي احتلت مكانة مهمة في حياة المدينة، وامتدت على مدى عقود من الثلاثينيات حتى نهاية القرن العشرين. يروي هذا الكتاب سيرة صعود وازدهار الـ«سيلما»، حيث تتكون سيرتها من المعابد والطقوس والقصص والأفلام والنجوم، ومن علاقة السينما نفسها مع حياة مدينة عربية اختبرت كل أنواع الأفلام في حياتها. كذلك، يحتفي المهرجان بتجربة زكاك السينمائية من خلال عرض أفلامه في سوق جبيل القديم بالتعاون مع «المركز الثقافي البلدي في بيبوس (CLAC)»، وجهات أخرى.

على مدى ثلاثة أيام (19، 20، و21 تشرين الثاني/نوفمبر)، ستعرض سبعة أفلام من ريبورتوار المخرج «يا عمري» (2017)، و«هاني مون» (2013)، «بيروت وجهات نظر» (2000)، «درس في التاريخ» (2009) و«لبنان من خلال السينما» (2013)، «مارسيدس» (2011)، و«سينما الحرب في لبنان» (2003) »

"سيلمّا" طرابلس... ذاكرة المدينة و«أيامها الحلوة» والمرّة

بقلم خليل الحاج علي

يحتّم كتاب «العرض الأخير: سيرة «سيلمّا» طرابلس»، للكاتب والمخرج السينمائي اللبناني هادي زكاك السؤال عن أهمية توثيق الماضي، وبناء استمرارية بين الأزمنة، بهدف إعادة النظر في الواقع الراهن. يتعدّى «العرض الأخير» (زاك فيلمز — ينكبّ أيضاً على فيلم وثائقي عن الصالات في طرابلس) السرد الإسمي، والتوثيق التاريخي، ليشكّل قراءة سوسولوجية — أنثربولوجية لمشهد عرفته مدينة طرابلس طوال ما يقارب قرناً من الزمن، في منحى يتخذ تصاعداً فكرياً، تتشعب منه محطات التاريخ السياسي، والاجتماعي، والتحوّلات المستمرة للمدينة الشمالية، وتأثرها بمحيطها. سرد يتجاوز مع 750 صورة، جمعها زكاك في كتاب هو أشبه بفيلم روائي، ذي طابع مشوق ونوستالجي. يوثّق ذاكرة طرابلس، التي شهدت انفتاحاً على العالم وتلاشت انطوائيتها في خمسينيات القرن الماضي، وازداد صعود المشهد الثقافي فيها، لغاية اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية، وما بعدها.

قراءة الكتاب تشبه النظر في صندوق الفرجة... في قديم الزمان، على سواحل الشرق المتوسط، خبأت إحدى المدن التي تدعى طرابلس، تاريخاً عريقاً وتجربة حيّة للفنون. شيدت «إمبراطورية سينمائية»، وعرفت عصراً ذهبياً بين الخمسينيات ومطلع السبعينيات. حكاياها هم بضع عائلات طرابلسية، جعلوا صالات السينما جزءاً هاماً من اقتصاد المدينة. أما جمهورها، فهو من أحياء التل، والميناء، ومخيمات الشتات... ونجوم شاشتها، من صحراء الشرق، وهوليوود، وأوروبا، والشرق الأقصى، وغيرها. على الأرجح، أنّ معالم هذه الإمبراطورية بدأت مع الحكواتي في مقاهي طرابلس العتيقة. أيضاً، مع كراكوز وعيوظ مسرح خيال الظل. كان الأطفال — وفق ما ينقل الكتاب — يترقبون أبو حشيشة و«صندوق الفرجة» خاصته، حيث كان يقف صباح كل أحد، في مدخل البناية، ويبدأ بالغناء «تعا تفرّج يا سلام... على الزير سالم يا سلام».

تحتّ السينما رحالها في الفيحاء، حيث تُشيد أول صالة عام 1910. اقتصرت الشرائط حينها على مشاهد الحيوانات والمناظر الطبيعية. يمرّ الوقت، وتصبح السينما جزءاً من روتين المقاهي الشعبية، سمّاها الطرابلسيون في ذلك الوقت «سيلمّا»، بلهجتهم المحكية، واقتصر الحضور على الرجال فقط.

يعود هادي زكاك إلى ثلاثينيات القرن الماضي، عندما راحت طرابلس تتحضر لافتتاح صالات العرض السينمائية. بدأ العمل على أدق التفاصيل: الستائر، الزخرفة، ونوعية الكراسي. كلها خلقت جواً لكي يسافر المشاهد في رحاب الفن السابع. ازدادت العروض في الخمسينيات، وباتت الشرائط العربية والأجنبية، تحتل أولوية مطلقة للجمهور. برز استعمال التسميات الفرنسية للصالات، «أمبير» مثلاً، بالتوازي مع الأسماء العربية للصالات: «الشرق»، و«دنيا»، و«الكواكب»... لم تكن موضحة البوشار رائجة بعد. كان هناك «البليّة»، و«الببسي كولا»، و«المخلوطة»، والفسق الحلبي، والترمس. وصل الأمر إلى إدخال سندويش الفلفل إلى السينما، حيث كانت تنتشر رائحته أيام الأعياد، بعدما أتى اللاجئون

الفلسطينيون بـ «أم الفلاف»، مع وصولهم إلى المدينة على إثر نكسة 1948.

بين العرضين الأول، والأخير، سيل من الحكايات. يضيء زكاك على فيلم «الوردة البيضاء» (1933)، الذي شكل خرقاً على مستوى الإنتاجات المصرية. محمد عبد الوهاب سيكرس اللبنة الأساسية للسينما المصرية. كان «مقهى التل العليا»، وهو وقف لعائلة المجذوب بنته الدولة العثمانية، شاهداً حياً على تغيّرات المدينة. بدأ المقهى بعرض الأفلام في الهواء الطلق. واكب التل الأفلام الصامتة والناطقة، وتابع الطرابلسيون نجوماً أمثال إسماعيل ياسين، وليلى مراد، وفريد الأطرش. هناك طقوس فرضتها «سيلما» التل. تجلس على كراسٍ من القش في المقهى، وتطلب الشيشة، معها «مصقع» أو «كازوزة»، وتشاهد فيلماً. يعرض «هذا ما جناه أبي»، للنجمين زكي رستم وصباح، وبعد أن ينتهي العرض، تبدأ جلسة نقاش حول بعض الأفكار الاجتماعية والاقتصادية.

يدخل سكان المدينة في مرحلة ثقافية جديدة، بعدما شهد حسن الإنجا في رحلاته على تصاميم المسارح الأوروبية. يأتي بعدها ليشتيد مسرحاً بتصاميم إيطالية. حمل المسرح يومها اسم «زهرة الفيحاء»، الذي توافدت عليه الفرق المسرحية من مختلف الدول. حتى إن «الآنسة أم كلثوم» غنّت على خشبته، في أيلول (سبتمبر) من عام 1931. بعد سنوات قليلة، تم تجهيز مسرح الفيحاء بشاشة بيضاء، وآلة عرض للأفلام. وقد عرض فيها «دموع الحب» (1935)، هذا الفيلم الذي تضمن بعض المشاهد التي صوّرت في لبنان، جاعلاً من بلاد الأرز ديكوراً تكرر استعماله في الأفلام المصرية.

شهدت طرابلس ولادة سينما أخرى هي «أمبير»، أقدم صالة في لبنان، وفق ما يؤكّد زكاك في «العرض الأخير». في ثلاثينيات القرن الماضي، يقترح نقولا قطان على أنطوان حبيب شاهين، تشييد «سينما وبلكون» في الطابق السفلي، على أن تقطن العائلة في الطابق العلوي. يقتنع شاهين بالطابع التجاري للمشروع، ويشيّد السينما. أصبحت لطرابلس صالة سينمائية يأتي الرواد إليها. ينتهون من مشوارهم في سينما «أمبير»، ويمرّون بالقرب من كباريه «كانجارور»، حيث الجنود الأستراليون يشربون البيرة، بعد تمرّكزهم هناك عام 1941. عرضت «أمبير» أفلاماً متنوعة مثل «صراع في الوادي» (1954). ومن أبرز عروضها، الفيلم اللبناني «عذاب الضمير» (1953). وفي نهاية الخمسينيات، أسرت مارلين مونرو قلوب الطرابلسيين في فيلم (Some Like it Hot 1959)، الذي يتعدّى دور المتعة فحسب، ويرسّخ في عقل المشاهدين النهايات المعبرة على غرار «لا أحد كامل»، التي جاءت كدعوة طليعية لتقبّل كافة الهويات الجنسية، بما فيها المثلية.

في ذاكرة السينما أمسيات حاشدة وأفلام من كل حذب وصب، منها الموجة الإيطالية في فيلم «كان يا مكان في الغرب» (1968)، ثم موجة الأفلام الهندية كـ «أنا الهند» (1957)، وصولاً إلى موجة الأفلام الإيروتيكية، أي الأفلام الحارة التي تطفئ قلوب الشباب، تحديداً مع فيلم ناهد يسري «سيدة الأقمار السوداء» (1971) الذي عُرض رغم قطع الرقابة كثيراً من مشاهده. كذلك، ضربت مكلة جمال الكون جورجينا رزق موعداً مع الجمهور في سينما «أمبير» في فيلمها «غيتار الحب» (1973) حيث الرقص بالبيكيني. هناك، تعلّق المشاهدون أيضاً بسعاد حسني وتحية كاريوكا في فيلم «خلي بالك من زوزو» (1972). ظل زخم العروض يتصاعد وصولاً إلى فترة اندلاع الحرب الأهلية، عندما شهدت «أمبير» بدورها على الصراع والقتال، المرافق لرقص الأجساد العارية وحركتها... لم تتوقف السينما عن العرض، بل استمرّت في تسجيل الذاكرة، كما يقول زكاك.

يتوقّف «العرض الأخير»، عند كل الدور السينمائية التي عرفتها طرابلس. يقول زكاك بأنّ سينما «الروكسي» مثلاً ارتبطت بشكل وثيق بتاريخ السينما وألقتها، وتأثّر السكان فيها. بعد نجاح فيلم «ذهب مع الريح» (1939)، بدأ شباب المدينة بتقليد شاري الممثل الوسيم كلارك غايل. المشهد كان لافتاً في سينما «الحمراء»، إذ توافد الناس إليها بالبوسطات لمشاهدة «شمشون ودليلة» (1959)، وبطلته الممثلة الأميركية هايدي لامار. لكن دور سينما «الحمراء» الريادي تراجع مع ظهور سينما «كولورادو».

شهدت صالات السينما في طرابلس ازدهاراً وتكاثرت فيها العروض. في «ريكس»، صدح صوت ليلي مراد في فيلم «قلبي دليلي» (1947). أما سينما «أوبرا» فكانت في أوج نجاحها عندما اخترع الشيطان بريجيت باردو في فيلم «وخلق الله المرأة» (1956) للمخرج الفرنسي روجيه فاديم. «ريفولي»، جوهره الصالات، كما يُطلق عليها، قدمت «أبو سليم في المدينة» (1961) وهو أول فيلم لنجم المسرح الطرابلسي والتلفزيون اللبناني صلاح تيزاني. وبحسب ما يوثّق زكاك، فإن سينما «كولورادو» كانت نجمة الصالات حيث قدّمت أفلام ألفرد هيتشكوك إلى المتفرّجين، وأفلام إسماعيل يس، وقدمت ملك الروك أند رول ألفيس بريسلي، وروائع عمر الشريف، وآل باتشينو. لا يقف الكتاب عن سرد هذه الشرائط فحسب، بل يدخل أيضاً في مدى تأثير المتفرّجين الطرابلسيين بدور الأمازونيّات، نساء الحب والحرب، في فيلم «معركة الأمازونيّات» (1973)، وعما إذا ما كان المتفرّجون سيطالبون بالعدالة الاجتماعية.

أعادت سينما الميناء «كليوباترا» عرض أفلام الموسم وقتذاك كـ «لحن حبي» (1953) للشحورة صباح وفريد الأطرش... زاحمتها أيضاً سينما «راديو» عام 1954 عندما تعلم إلياس حداد كيفية تركيب الفيلم على آلة العرض، ووضع الناضور، وتغيير «الكاربون»، حتى إنه بات من أشهر مشغلي آلات العرض السينمائي في الميناء. عن سينما «سلوى»، حيث سكب المتفرّجون الدموع، ينقل زكاك عن الكاتب جان توما مدى تأثير أبناء المدينة بالأفلام الهندية التي عرضت فيها. لا يقتصر السرد على التوثيق هنا، بل يُسائل ارتباط مجتمع الميناء البحري بمواضيع الأفلام الهندية، حيث يبدو للكاتب أن الميناء البحري الهادي، كان ينقصه الصخب الموسيقي، والإيقاع الراقص. لقد تقاطعت العادات بين المجتمعين، أكان لجهة التركيبية العددية للعائلة الهندية، أو القيم الإنسانية التي يعرفها المجتمع الميناوي الذي اكتشف على صعيد آخر، القرية اللبنانية في الزمن العثماني تحديداً، في فيلم «سفر برلك» (1976)، و «بنت الحارس» (1968)، المطعّم بانعكاسات الحروب والتغيّرات، بعدما شهت فيروز السلاح بوجه الفساد في هذا الفيلم... يستمر العرض لأفلام بدوية وغنائية ويوليسية. «بالاس»، و«الأمير»، و«أوديون»، و«شهرزاد»، وغيرها من الصالات التي قدمت زوربا، وهرقل... عزّفت هذه الصالات الجمهور على تشارلي شابلن، وصوفيا لورين، وغيرهما. ارتادت العائلات من كل الطبقات الاجتماعية دور العرض هذه. حينها، كانت النسوة يرتدين أجمل الفساتين، ويتأقّ الرجال لدى ذهابهم إليها.

ما مدى ارتباط استمرارية «سيلما» بالجنس؟ يقصّ المخرج السينمائي اللبناني في كتابه فورة أفلام البورنو، ويسأل: «كيف للمدينة التي عُرفت دائماً بطابعها المحافظ، أن تشهد ظاهرة «مخلة بالأداب»؟ لا تقتصر التغيرات عند هذا الحد، بل تأتي

مصحوبة بضياح هوية المدينة ومطالبة عدد من سكانها بالانضمام إلى سوريا، إلى أن تخلّت الحركة الوطنية السورية عن طرابلس حيث دخلت المدينة في الكيان اللبناني. بعد موجات صعود وهبوط، أفل نجم بعض الصالات وصعد دور أخرى. حتى أن «سيلما» أفلت أبوابها مع اعتقال الرئيس عبد الحميد كرامي في 11 تشرين 1943، لفترة من الوقت. وقد ازدادت الأمور تعقيداً، بعد انقضاء الانتداب، وتزوير الانتخابات النيابية عام 1947. بات بعضهم يعتبر أن «سيلما» هي رمز للفساد، وتعمل على زعزعة طابع المجتمع الطرابلسي المحافظ.

انتشرت جماعة «شباب محمد» وهي أول حركة سلفية في طرابلس، على يد مؤسسها أو «أميرها» الشيخ سالم الشهبال عام 1947. شنت حينها حملة ضد دور السينما، وتم تكسير الإعلانات الملونة و«البذينة» على إثر هذه الحملة. ما فتئت المدينة تخرج من صراعات جديدة، حتى تدخل في أخرى. وقد أثّرت الأبناء الآتية من فلسطين في ربيع 1948 على أبناء المدينة، خصوصاً حين واكبت «سيلما» النكبة الفلسطينية، واستضافت حفلات لمساعدة اللاجئين. أبعد من ذلك، وصل الأمر في الخمسينيات إلى تشديد الرقابة على المواضيع الدينية المتعلقة باليهود. على سبيل المثال، في فيلم «الوصايا العشرة» (1956) للمخرج سيسيل ب. دي، كان هناك تسويق لإسرائيل، شأنه شأن أفلام أخرى دفعت «مكتب مقاطعة إسرائيل» لاحقاً إلى منع عرض أفلام من هذا القبيل.

المدينة على صفيح ساخن. كيف تتحضر طرابلس عشية الحرب الأهلية؟ ينقل زكّاء في كتابه كيف بحثت «سيلما» عن الإنتاجات الجديدة التي تُحاكي التطورات الداخلية. يستمر «العرض الأخير» بسرد فترة الثمانينيات حين أفلت بعض الصالات أبوابها، ويمرّ على فيلموغرافيا التسعينيات، وصولاً إلى «سيلما» الجبهات والمحاور. شاخت السينما بعدما أُنعت الانتكاسات ومحاولات تصديّها للموت. تعيش السينما اليوم في طرابلس حالة من الموت، فيما يأتي كتاب هادي زكّاء، ليجعل الماضي فرصة للانطلاق والربط بين الأزمنة. ينتهي السرد أخيراً في هذا الكتاب الذي كان بمثابة «العرض الأخير» للقراء، خصوصاً تمتعهم بلغة الكتاب المشوّقة، ووجوه النجوم السينمائيين الحلوة. ومعها، ينتهي عرض حضارة بأكملها. ترافق الحسرة شعوراً داخلياً، وتجعل القارئ ينظر إلى سلسلة التحولات التي شهدتها المدينة، بعدسة السينما، من خلال تحليل ظاهرة أفول صالات السينما، بعدما حلت اليافطات والشعارات السياسية لصور الزعماء الطرابلسيين الجدد محلّ ملصقات الأفلام.